تحرير آية

العلم والتقوى

إعداد:

موفَّق شيخ إبراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد: فهذا تحرير لقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ } [البقرة: ٢٨٢].

المعنى المشهور هو ترتب العلم على التقوى وكونه ثمرة لها، قال به طائفة من المفسرين، منهم ابن كثير والقرطبي، وهذه نصوصهما:

- تفسير ابن كثير: وقوله: { وَاتَّقُوا اللَّهَ } أي: خافوه وراقبوه، واتبعوا أمره واتركوا زجره { وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ } كقوله { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } [الأنفال: ٢٩]، وكقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ } [الحديد: ٢٨].

- تفسير القرطبي: قوله تعالى: (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم) وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه، أي يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانا، أي فيصلا يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى:" يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ". والله أعلم.

وأضيف على بيانهما من ذهب مذهبهما، وهم:

- تفسير الماتريدي، تأويلات أهل السنة: قال تعالى: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ)، فهو ثمرة التقوى والإخلاص، ولا ينال هذا العلم من كان في قلبه بدعة أو كبر أو حب للدنيا أو ميل إلى المعاصي، قال تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ).

- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي: وقد بينت آيات عديدة آثار التقوى في العاجل والآجل. منها في العاجل قوله تعالى: ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا [٦٥ \ ٤]، وقوله: ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب [٦٥ \ ٢ - ٣]، وقوله: واتقوا الله ويعلمكم الله [٢ \ ٢٨٢]، وقوله: إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون [١٦ \ ١٢٨].

- فتح الرحمن في تفسير القرآن، محي الدين المقدسي: {واتقوا الله ويعلمكم الله} المعنى: اجتنبوا معصية الله يعرفكم طرق فلاحكم. تلخيصه: من راقب الله، أرشده.

- صفوة التفاسير للشيخ محمَّد علي الصابوني: [واتقوا الله ويعلمكم الله] أي خافوا الله وراقبوه، يمنحكم الله العلم النافع الذي به سعادة الدارين.

- تفسير روح البيان لاسماعيل حقي: الله تعالى قال:" واتقوا الله ويعلمكم الله "، فهم أهل التقوى الحقيقي ولذا علمهم الله ما لم يعلم أحداً من العالمين. انتهى النقل.

إلا أن فريقاً سواهم خالفهم، وهنا أثبت النقول عنهم من القدامى، وعلى رأسهم شيخ المفسرين الطبري، و كذا من المعاصرين، وفي مقدمتهم العالم النحرير الطاهر بن عاشور، ومنهم من يستفيض في المناقشة وسرد الأدلة لما ذهب إليه، من أمثال صاحب تفسير المنار، رحمهم الله جميعاً ورحم المخالفين لهم من أهل العلم، وأثابهم عنا الجزيل:

- تفسير الطبري: القول في تأويل قوله تعالى: {واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم}.

يعني بقوله جل ثناؤه: {واتقوا الله} وخافوا الله أيها المتداينون في الكتاب والشهود أن تضاروهم، وفي غير ذلك من حدود الله أن تضيعوه، ويعني بقوله: {ويعلمكم الله} ويبين لكم الواجب لكم وعليكم ".

- مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ثم قال تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ يعني فيما حذر منه هاهنا، وهو المضارة، أو يكون عاماً، والمعنى اتقوا الله في جميع أوامره ونواهيه.

ثم قال: وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ والمعنى: أنه يعلمكم ما يكون إرشاداً واحتياطاً في أمر الدنيا، كما يعلمكم ما يكون إرشاداً في أمر الدين وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إشارة إلى كونه سبحانه وتعالى عالماً بجميع مصالح الدنيا والآخرة.

- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف): (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) لاستقلالها، فإن الأولى حثٌّ على التقوى، والثانية وعدٌ بإنعامه، والثالثة: لتعظيم شأنه، ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية. وقلت: إن الأول على ظاهره؛ لأنه مذكور بعد قوله: (وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ) أي: لا تفعلوا واتقوا الله واحذروا عقابه، والثاني: من وضع المظهر موضع المضمر للتفخيم، يعني: كيف لا يتقونه والحال أنه بجلالته وعظمته يعلمكم ولم يكل على الغير.

- تفسير السعدي: واستدل بقوله تعالى: { وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ } أن تقوى الله، وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } أي: علماً تفرقون به بين الحقائق، والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمنه أيضاً، تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء.

- تفسير المنار لمحمَّد رشيد رضا: قوله عز وجل:" واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم "، أي اتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم، فإنكم لولا هدايته لا تعلمون ذلك، وهو سبحانه العليم بكل شيء فإذا شرع شيئاً فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن اتبع شرعه، وكرر لفظ الجلالة لكمال التذكير وقوة التأثير. وقال البيضاوي: كرر لفظ الله في الجمل الثلاث لاستقلالها، فإن الأولى حثٌّ على التقوى، والثانية وعد بإنعامه، والثالثة تعظيم لشأنه ولأنه أدخل في التعظيم من الكناية. وهذا مبنيٌّ على أن الثانية جملة مستأنفة وقيل: هي جملة حالية.

قال الأستاذ الإمام: اشتهر على ألسنة المدعين للتصوف في معنى هاتين الجملتين واتقوا الله ويعلمكم الله أن التقوى تكون سببا للعلم، وبنوا على ذلك أن سلوك طريقتهم وما يأتونه فيها من الرياضة وتلاوة الأوراد والأحزاب تثمر لهم العلوم الآلهية وعلم النفس وغير ذلك من العلوم بدون تعلم. وهذا الزعم فتح للجاهلين الذين يلبسون لباس الصلاح دعوى العلم بالله وفهم القرآن والحديث ومعرفة أسرار الشريعة من غير أن يكونوا قد تعلموا من ذلك شيئاً، والعامة تسلِّم لهم بهذه الدعوى وتصدِّق قولهم أن الله هو الذي تولى تعليمهم ويسمون علمهم هذا بالعلم اللدني. ويُردُّ استدلالهم بالآية على ذلك من وجهين:

أحدهما: أنه لا يرضى به سيبويه وله الحق في ذلك؛ لأن عطف يعلمكم على اتقوا الله ينافي أن يكون جزاء له ومرتباً عليه؛ لأن العطف يقتضي المغايرة. ولو قال " يعلمكم " بالجزم لكان مفيداً لما قالوه، وكذلك لو كان العطف بالفاء أو اتصل بالفعل لام التعليل.

والثاني: أن قولهم هذا عبارة عن جعل المسبب سبباً والفرع أصلاً والنتيجة مقدمة، فإن المعروف المعقول أن العلم هو الذي يثمر التقوى، فلا تقوى بلا علم فالعلم هو الأصل الأول، وعليه المعول. وبعد أن أطال بعض الإطالة في بيان تأثير العلم في الإرادة بتوجيهها إلى العمل الصالح وصرفها عن العمل القبيح - وتلك هي التقوى - قال: إننا لا ننكر العلم الذي يسمونه لدنيّاً، وإنما ننكر أن يكون غاية لذلك الطريق الجائر الذي يشترط فيه الجهل، ونقول: إن العلم بالله تعالى والعلم بالشرع والعمل به مع الإخلاص قد يصرف العالم العامل المخلص إلى الله تعالى حتى يكون كالمنفصل بقلبه وروحه عن العالم الطبيعي، وقد يحصل له عند ذلك إشراف على ما لا يشرف عليه غيره يعني من أسرار الحكمة الإلهية والتحقق ببعض المعارف الغيبية، فيعلم مما قصه الله علينا من خبر الآخرة والملائكة ما لا يعلمه كل ناظر في معاني الألفاظ والأساليب في الكتاب، وأين هذا مما يدعيه أعوان الجهل وأعداء العلم!.

وأقول: إنهم يستدلون على زعمهم ذلك بآية أخرى توهم بعض من كتب في التفسير أنها بمعنى ما قالوه هنا وهي قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم [٨: ٢٩] الآية وهو غلط. فسَّر بعض أهل الأثر الفرقان هنا بالمخرج، فالشرطية عنده كالشرطية في قوله تعالى في سورة الطلاق: ومن يتق الله يجعل له مخرجا [٦٥: ٢] وبعضهم بالنجاة، وبعضهم بالنصر. قال ابن جرير:" وكل ذلك متقارب المعنى وإن اختلفت العبارات"، وهو كما قال فإن الآية في سورة الأنفال ومعظمها يتعلق بحال المسلمين قبل واقعة بدر، وكانوا في ضيق شديد كان الخروج منه بإنجائهم من عدوهم ونصرهم عليه، وما نصروا على قلتهم إلا بتقوى الله التي جمعت كلمتهم وقوت عزيمتهم. والتقوى تكون سبب الفرقان والمخرج في كل شيء بحسبه؛ لأنها عبارة عن اتقاء أسباب الضرر والخذلان في النفس وفي الخارج ؛ ولذلك يفسَّر المخرج في آية سورة الطلاق - وهي في مقام

الإنفاق على النساء - بما لا يفسَّر به في سورة الأنفال، وهي في مقام المدافعة والقتال لحماية الدعوة وأهلها.

هذا وإن الفرقان في اللغة هو الصبح الذي يفرق بين الليل والنهار، ويسمى القرآن فرقاناً؛ لأنه كالصبح يفرق بين الحق والباطل، وتقوى الله تعالى في الأمور كلها تعطي صاحبها نوراً يفرق به بين دقائق الشبهات التي لا يعلمهن كثير من الناس فهي تفيده علماً خاصاً لم يكن ليهتدي إليه لولاها. وهذا العلم الذي هو غير العلم الذي يتوقف على التلقين كالشرع أصوله وفروعه، وهو ما لا تتحقق التقوى بدونه؛ لأنها عبارة عن العمل - فعلاً وتركاً - بعلم، فالعلم الذي هو أصل التقوى وسببها لا يكون إلا بالتعلم كما ورد في الحديث " العلم بالتعلم ".

والعلم الذي هو فرعها وثمرتها هو ما تفطن له النفس بعد فيفيدها الرسوخ في العلم الأول بالعمل به، فإن العلم يكون في النفس مجملاً مبهماً حتى يعمل به، فإذا عمل به صار مفصَّلاً جليّاً راسخاً تتبين به الدقائق والخفايا. وبذلك تفطن نفس العامل إلى مسائل أخرى تطلبها بالتجربة والبحث حتى تصل إليها كما يعرف كل واقف على ترقي العلوم الطبيعية في الأنفس والأشياء، وهو المشار إليه بحديث: " ومن تعلم فعمل، علمه الله ما لم يعلم ". رواه أبو الشيخ عن ابن عباس وحديث:" من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم ". رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس، وإذا علمت أن التقوى عمل يتوقف على العلم، وأن هذا العلم لا بد أن يؤخذ بالتعليم والتلقي، وأن العمل بالعلم من أسباب المزيد فيه وخروجه من مضيق الإبهام والإجمال إلى فضاء الجلاء والتفصيل، فهمت المراد بالفرقان على عمومه، وعلمت أن أدعياء التصوف الجاهلين لا حظَّ لهم من ذلك العلم الأول، ولا من هذه التقوى التي هي أثره ولا من هذا العلم الأخير الذي هو أثر العلم والتقوى جميعاً، فبينهم وبين العلم اللدني مرحلتان بعيدتان: العلم الذي يؤخذ بالتلقي والتقوى بالعمل به.

- محاسن التأويل (تفسير القاسمي): { وَاتَّقُواْ اللّهَ } أن يعذبكم بالخروج عن طاعته: { وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ } أحكامه المتضمنة لمصالحكم.

- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}. أمر بالتقوى لأنها ملاك الخير، وبها يكون ترك الفسوق. وقوله: {وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ} تذكير بنعمة الإسلام، الذي أخرجهم من الجهالة إلى العلم بالشريعة، ونظام العالم، وهو أكبر العلوم وأنفعها، ووعد بدوام ذلك لأنه جيء به بالمضارع، وفي عطفه على الأمر بالتقوى إيماء إلى أن التقوى سبب إفاضة العلوم، حتى قيل: إن الواو فيه للتعليل أي ليعلمكم. وجعله بعضهم من معاني الواو، وليس بصحيح.

وإظهار اسم الجلالة في الجمل الثلاث: لقصد التنويه بكل جملة منها حتى تكون مستقلة الدلالة، غير محتاجة إلى غيرها المشتمل على معاد ضميرها، حتى إذا سمع السامع كل واحدة منها حصل له علم مستقل، وقد لا يسمع إحداها فلا يضره ذلك في فهم أخراها.

- تفسير الشيخ المراغي: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) أي واتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه، وهو سبحانه يعلمكم ما فيه صلاح حالكم في الدارين وحفظ أموالكم، ولولا هديه لكم لم تعلموا شيئاً، وهو العليم بكل شيء، فإذا شرع شيئاً من الأحكام فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن اتبع شرعه وهداه.

- زهرة التفاسير للشيخ أبي زهرة: (واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم)، ختم الله سبحانه وتعالى هذه الآية بما يربى المهابة للأوامر العلية والوصايا الإلهية؟ وقد اشتمل ذلك الختام الكريم على ثلاثة أمور: أولها: تقوى الله، فإنها نور القلب، وهي الشعور بمراقبة الله، وفى ذلك إشارة إلى وجوب مراقبة الله عند التعامل، ونية الاداء.

ثانيها: الإشعار بأن هذا تعليم من الله اللطيف الخبير، ليحسن التعامل، ويقوم على أسس من الثقة والاطمئنان ومنع الريب.

ثالثها: لإشعار إحاطة علم الله، فما يأمر به هو أمر عليم حكيم يعلم وجه المصلحة، وهو عليم بالضمائر، وهو الذى يتولى السرائر.

- البرهان في علوم القرآن للزركشيّ: وأما قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ}، فظنَّ بعض الناس أن التقوى سبب التعليم، والمحققون على منع ذلك لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط فلم يقل: واتقوا الله يعلمكم، ولا قال: فيعلمكم الله، وإنما أتى بواو العطف وليس فيه ما يقتضي أن الأول سبب للثاني، وإنما غايته الاقتران والتلازم، كما يقال: زرني وأزورك، وسلم علينا ونسلم عليك ونحوه، مما يقتضي اقتران الفعلين والتعارض من الطرفين، كما لو قال عبد لسيّده: اعتقني ولك عليَّ ألف، أو قالت المرأة لزوجها: طلقني ولك ألف، فإن ذلك بمنزلة قولها بألف أو عليَّ ألف، وحينئذٍ فيكون متى علَّم الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك، ونظير الآية قوله تعالى: {فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}، وقوله عقيب ذكر الغيبة: {وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ} ووجه هذا الختام التنبيه على التوبة من الاغتياب وهو من الظلم.

- الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية، لنجم الدين الطوفي: (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) لاحتمال أن هذه اتفاقية اقترانية فقط، لا لزوم فيها بين التقوى والتعليم بخلاف {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقاناً} [الأنفال: ٢٩] فإنها شرطية لزومية.

- الموافقات، للشاطبي:" إن المقلد إذا عرضت له مسألة دينية؛ فلا يسعه في الدين إلا السؤال عنها على الجملة؛ لأن الله لم يتعبَّد الخلق بالجهل، وإنما تعبدهم على مقتضى قوله سبحانه: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّه} [البقرة: ٢٨٢] لا على ما يفهمه كثير من الناس، بل على ما قرره الأئمة في صناعة النحو، أي: إن الله يعلمكم على كل حال فاتقوه؛ فكأن الثاني سبب في الأول؛ فترتب الأمر بالتقوى على حصول التعليم ترتباً معنوياً، وهو يقتضي تقدم العلم على العمل، والأدلة على هذا المعنى كثيرة وهي قضية لا نزاع فيها ".

- الأنوار البهية في حل الجزرية، العلامة الشيخ عبد الباسط حامد محمد الشهير بـ عبد الباسط هاشم: ومن الوقوف الشائعة في سورة البقرة أيضاً قول الله تعالى: (واتقوا الله ويعلمكم الله)، وأصبح هذا الوقف مثلاً، فكلما كلمت أحداً في نقصان العلم وزيادته قال لك: (واتقوا الله ويعلمكم الله)، فكم من تقيٍّ ليس بعالم، وكم من فاجر عالم، فالوقف الصحيح (واتقوا الله) ثم نقول: (ويعلمكم الله) فقد يكون العالم غير تقيٍّ، وقد يكون التقيُّ أفضل من العالم، كيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان). فأوضح صلى الله عليه وسلم أن من المنافقين علماء، ومن الممكن أن يكون حافظاً للقرآن قارئاً له ومنافق من الذين قال فيهم رسول الله: (يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم)، ومن الذين قال فيهم صلى الله عليه وسلم: (تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم) يعني بهم الخوارج، فالعالم شيء، والتقيُّ شيء، وقد يكون العالم أفضل من التقيّ، وقد يكون التقيُّ أفضل من العالم، فارتباط العلم بالتقوى لا يشترط، فالمطلوب الوقوف على (واتقوا الله) ثم نقف (ويعلمكم الله).

- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، ابن قيّم الجوزية: [قال بعض السلف كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به، وقال بعض السلف أيضاً: العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه حلَّ وإلا ارتحل، فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته وترك العمل به إضاعة له؛ فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل، قال الله تعالى:" يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به". وأما قوله تعالى:" واتقوا الله ويعلمكم الله"، فليس من هذا الباب، بل هما جملتان مستقلتان طلبية وهي الأمر بالتقوى، وخبرية وهي قوله تعالى:" ويعلمكم الله"، أي والله يعلمكم ما تتقون، وليست جواباً للأمر بالتقوى، ولو أريد بها الجزاء لأتى بها مجزومة مجردة عن الواو، فكان يقول: واتقوا الله يعلمكم، أو إن تتقوه يعلمكم، كما قال:" إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً "].

- إعراب القرآن وبيانه، لمحي الدين درويش: (وَاتَّقُوا اللَّهَ) الواو عاطفة، واتقوا: فعل أمر والواو فاعل ولفظ الجلالة مفعول به (وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) الواو استئنافية ولا مكان لجعلها حالية، كما قرر الجلال وتابعه كثيرون من المفسرين والمعربين، لأن المضارع المثبت لا تباشره واو الحال، وإن حاول بعضهم تقدير مبتدأ محذوف لتكون الجملة اسمية؛ أي وهو يعلمكم لما فيه من تكلف، وفي جعلها عاطفة خلاف للأولى، لأن فيه ارتكاب عطف الخبر على الإنشاء، وذلك موضع خلاف سيرد في مكانه من هذا الكتاب والله فاعل يعلمكم والكاف مفعول يعلمكم.

- أدوات الإعراب، ظاهر شوكت البياتي: قال تعالى: وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ [البقرة ٢٨٢/ ٢].

جملة (اتَّقُوا اللَّهَ) إنشائية لأنها أمرية.

جملة (يُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ) وجملة (اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) جملتان خبريتان.

ويعلمكم: الواو استئنافية لا محل لها من الاعراب.

المناقشة: بعد هذا الإستعراض لآراء جملة من أهل التفسير، وبعض من اشتغل بعلوم القرآن، وقواعد اللغة وعلم أصول الفقه، فإن الركون إلى قواعد اللغة والاحتكام إليها، هو الأسلم في الوصول إلى ترجيح أحد الرأيين، ونلاحظ أن الفهم القائل بأن العلم هو ثمرة للتقوى، لا تساعده قواعد اللغة الفصحى؛ لأنه مبنيٌّ على أن جملة {وَيُعَلِّمُكُم} حال مقدرة، أو بمعنى مضمونًا لكم التعليم، وكلاهما يفيد أن التعليم مرتب على التقوى، ولكن الجملة المضارعية المثبتة وقوعها حالاً بالواو قليل؛ حتى قالوا: لا بدَّ له من التأويل، والوجه الثاني أن هذه الجمل الثلاث مستقلة بعضها عن بعض؛ فالأولى طلب تقوى الله، والثانية وعد بالإنعام، والثالثة غاية التعظيم، ولذا ساغ فيها تكرار كلمة الجلالة مع أنهم كرهوا تكرار اللفظ الواحد في الجمل المتعاقبة.

قال أبو حيَّان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط:" وَاتَّقُوا اللَّهَ أي: في ترك الضرار، أو: في جميع أوامره ونواهيه. ولما كان قوله:" وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ" خطاباً على سبيل الوعيد، أمر بتقوى الله حتى لا يقع في الفسق.

وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ هذه جملة تذكِّر بنعم الله التي أشرفها: التعليم للعلوم، وهي جملة مستأنفة لا موضع لها من الإعراب، وقيل: هي في موضع نصب على الحال من الفاعل في: واتقوا، تقديره: واتقوا الله مضموناً لكم التعليم والهداية. وقال أبو البقاء: ويجوز أن يكون حالاً مقدرة. انتهى. وهذا القول، أعني: الحال، ضعيف جداً، لأن المضارع الواقع حالاً، لا يدخل عليه واو الحال إلّا فيما شذَّ من نحو: قمت وأصك عينه. ولا ينبغي أن يحمَل القرآن على الشذوذ ".

وللسمين الحلبيّ رحمه الله رأيٌ موافقٌ لأبي حيَّان وإن كان أخفَّ في حدَّة عدم تصويب القول بحاليتها قال في كتابه: الدر المصون في علم الكتاب المكنون: قوله: { ويعلمكم الله } يجوز في هذه الجملة الاستئناف - وهو الظاهر - ويجوز أن تكون حالاً من الفاعل في « اتقوا » قال أبو البقاء: « تقديره: واتقوا الله مضمونا لكم التعليم أو الهداية، ويجوز أن تكون حالا مقدرة ». قلت: وفي هذين الوجهين نظر لأن المضارع المثبت لا تباشره واو الحال، فإن ورد ما ظاهره ذلك يؤول، لكن لا ضرورة تدعو إليه ههنا ". انتهى.

ولوضوح ما ذهب إليه ابن حيان ومن وافقه ولرجحانه، لم يتعرَّض لإعراب هذه الجملة الإمام مكي بن أبي طالب في مشكل إعراب القرآن.

وفي القرآن الكريم وقعت جميع الأفعال المضارعة التي جاءت جوابًا لفعل الأمر دائمًا على الجَزم؛ كقوله تعالى { أرسله معنا غدًا يلعبْ ويرتَعْ}، وقوله تعالى { ادعُ لنا ربك يُخرِجْ لنا... } الآية، وغيرها من المواضع، ولم أقف على موضع واحد جاء فيه الفعل المضارع (الواقع في جواب الأمر) مرفوعاً. والذي

عليه عامة النحويين وأئمة الشأن أن جواب الطلب إذا كان مضارعاً أنه مجزوم، وهذا رأي سيبويه وغيره.

ومن حيث العموم وتتميماً للفائدة، فإن التقوى ليست شرطاً في تحصيل العلم الشرعيّ، ولكن هي شرط للانتفاع بالعلم، فكم من رجلٍ عالمٍ يشار إليه بالفسوق من الإصرار على المعاصي؟!

وفي ذات الوقت لا يجوز بحالٍ من الأحوال أن نقصر سبل العلم في ركبة يثنيها طالب العلم عند عالم، أو صفحة يقلبها تحت مصباح!

العلم له طريقان:

١- مباشر: وهو بالطرق المعروفة المسلوكة عند أهل العلم قديماً وحديثاً.

٢- غير مباشر: ويدخل فيها أعمال القلوب من خشية الله وغيرها كثير، ومنها التقوى.

الترجيح: وهو لغةً ما يدلُّ على الرزانة، والزيادة. وفي اصطلاح الأصوليين: تقويةُ إحدى الأمارتين على الأخرى لدليل. وهو هنا: تقويةُ أحد الأقوال في تفسير الآية لدليلٍ، أو قاعدة تقوّيه، أو لتضعيفِ أو ردِّ ما سواه.

وقواعد الترجيح هي ضوابطُ، وأمورٌ أغلبيَّةٌ يُتوصَّلُ بها إلى معرفة الراجح من الأقوال المختلفة في تفسير كتاب الله تعالى.

ومن المناقشة التي تقدمت، ومراعاة للنظرة الكليَّة الشاملة للآيات؛ واستناداً إلى قواعد الترجيح المعتبرة والمقررة التالية:

* يجب حمل كلام الله على ا لمعروف من كلام العرب.

* وجوب حمل القرآن على الأوجه الإعرابية القوية، والمشهورة.

* وجوب حمل القرآن على الأوجه الإعرابية اللائقة بالسياق.

* القول الذي تؤيده قرائن في السياق مقدَّم على ما خالفه.

تبيَّن أن ما ذهب إليه أبو حيَّان والسمين الحلبي، ومن وافقهما هو الحقُّ وهو القول الصواب، ومفاده أن العلم ليس ثمرة وأثراً من آثار التقوى، والله أعلم وأحكم.

ملاحظة هامة: الترجيح الذي ذهبتُ إليه، مؤطر في الآية الكريمة، بمعنى: أن من قال بأن العلم ثمرة من ثمرات التقوى، في آية البقرة، التي هي محلُّ النزاع، فقوله مرجوح. وهو صحيح، في غير هذه الآية، أي من أدلة مستقلة أخرى كقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا } وكقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ }. والفرقان في اللغة هو الصبح الذي يفرق بين الليل والنهار، ويسمى القرآن فرقاناً؛ لأنه كالصبح يفرق بين الحق والباطل، وتقوى الله تعالى في الأمور كلها تعطي صاحبها نوراً يفرق به بين دقائق الشبهات التي لا يعلمهن كثير من الناس. وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

كتبه مقيّده عفا الله عنه: موفَّق شيخ إبراهيم

١٤٤٥هـ/٢٠٢٤م